نظرة في معرض التصوير والنقش

بقلم يوسف غصوب

رئيس قلم الترجمة في المفوضية العليا

نشرت

معرض التصوير والنقش ، الذي اقيم اخيرًا في مدرسة الصنائع والفنون ، فكان اول ما فوجئتُ به ، فسررتُ له ، وفرة العارضين من ارباب الفن والفواة ، وكثرة الزائرين على اختلاف ثقافتهم وتفاوت طبقاتهم . فتوسمت خيرًا ، وتبيّنت يقظةً للفن في لبنان ترفع من مستواه ، وتهذّب من ذوقه ، وقد تعرف بعض شبيبته عما يشينها الى ما يحلي نفسها ، ويشحذ مخيلتها . فالفنون الجميلة خير ما تُمدح به البلدان الراقية ، وافضل كنز لها . فانها تدلّ على قوة الابداع في اهلها ودرجة تقدمهم في مضمار الحضارة والتمدن .

قد كان لنا ، في قديم الزمان ، فنّ ؛ وكان لنا صيت حسن منتشر في الآفاق ، غير ان الايام والليالي قد كرّت عليها فلم تترك لنا الا الذكر ، وبعض آثار اكثرها طامس او مجهول المقرّ . وقد عشنا دهرًا عالةً على الاقدمين والاغراب في كل فرع من فروع الآداب والفنون ، وليس لنا من ميزة نعرف بها ، ولا من نسق مفروز .

فلو نظرنا مثلًا الى الآداب الكتابية ، لما رأينا فيها شيئًا مستجدًا بل جلّ ما جادت به القرائح من مئة سنة الى اليوم ، ان لم نقل كله ، عبارة عن تمارين اجهد اصحابها نفوسهم تتأتي على مثال ما سلف لكبار شعرائنا وكتابنا العريقين في القدم ، او لمشابه ، ولو عن بعد ، ما ابتكره الغربيون ، فكنا في كل ذلك مقلدين ، مقصرين حتى ان المئة سنة التي غبرت لم تنتج لنا اثرًا نفاخر به

او نتقدم به الى العالم ليضم الى آثاره الخالدة.

ومن الامور التي اهملناها كثيراً الفنون الجميلة من موسيقى ، وتصوير ، ونقش ، وهندسة ، وغيرها . فلم نعنَ بها اقل عناء ، بل عشنا ونحن في وادٍ وهي في واد ، كانها لم تكن . فلو استقرينا ما بني قبل الحرب من الابنية في لبنان ، لوجدناها خلواً من الهندسة او تكاد ، فلا تفنن ولا ابتكار ولا ذوق ، على ان الكثير مما شيّد آنئذٍ متسع ، متقن البناء ، أُنفق عليه المال الوافر .

وقد كان مستوى الذوق منحطاً الى درجة قصوى ، حتى انك لو دخلت دور الاغنياء لوجدتها تفيضُ بالنفيس من السجاد العجمي والرياش الثمين والمرايا والثريات البلورية ، ثم تجد قريباً منها ، وفي البهو الواحد ، صوراً لا قيمة فنية لها . فهي اما مطبوعة طبعاً ، واما مصوّرة تصويراً بالمكنسة ، على انها وضعت في اطارات فاخرة . ولا تزال ليومنا هذا ترى الاقبال الشائن على مثل هذه التوافه التي لا تصلح لشيء ، فكأنها بعض قصائد الشعر التي « تنتفخ بها بطون الكتب » كما قال في هذا الصدد احد مشاهير كتابنا في القرن الغابر ، احمد فارس الشدياق .

* * *

اننا لا نتصدى الآن لهذا الموضوع ، فانه متشعب بعيد الاطراف ، بل نحبّ ان نهلل للفكرة الجميلة التي اوحت انشاء معرض النقش والتصوير وان نكتب كلمة عن زيارتنا لهذا المعرض ، الذي هو باكورة عمل قد يكون له يدٌ بيضاء في تثقيف ذوقنا ، واستثمار مواهبنا ، وايجاد روح فنية لبنانية . ولا غروَ ان للسيد موريس زوين ، مدير مدرسة الصنائع ، الفضل الاوفر في تنظيم المعرض ، وترتيبه وجمع معروضاته ، فنحن نشكر له ذلك شكراً جزيلاً ، ونسأله ان يتابع عمله هذا بكل نشاط وجدّ حتى يأتي بالفائدة الجلى التي ننتظرها منه .

مدرسة الصنائع في حيّ من افضل احياء بيروت مركزاً ومنظراً ، فهو مستشرف يطل على البحر ، وفيه من الدور الجميلة الحديثة ، والحدائق الزاهرة ، ما يبهج العين ويشرح الصدر . وامام المدرسة حديقة للبلدية فيها الاشجار الباسقة ،

والمياه الجارية ، ومسارح للاولاد يتراكضون فيها ويرتمون ويلعبون . فكأن هذه الصورة من الحياة مقدمة شائقة للمعرض. اذا ولجت رتاج المدرسة الكبير فاول ما يواجهك قوارير من النبات والازهار قد رتبت على اشكال هندسية جميلة ، تمرّ خلالها حتى تصل الى قاعة التصوير الشمسي القائمة عن يمين المدخل.

التصوير الشمسي

قد تقدم هذا الفن تقدماً محسوساً ، وارتفع حتى كاد يصير في درجة التصوير اليدوي ، وقد ذهب فيه ارباب مذاهب شتى فلم يتكلوا في اعمالهم على الآلة المصوّرة ، بل سخرها البارعون منهم لتأدية اغراض معينة يقصدونها قصداً فيأتون بالتحف الثمينة. فن اللونين الابيض والاسود ، وما بينهما من درجات متفاوتة ، يتوصلون الى نتائج هي على غاية من الجمال . قد تمرّ بالمنظر البديع في الطبيعة مراراً عديدة ولا تأبه له حتى اذا احتال عليه المصور الشمسي، فأبرزه على شكل رائع ، ظللنا امامه مسحورين. فالمقدرة الفنية لا تقوم بالآلة فقط بل ببراعة المصوّر ايضاً وقوته على تخيّل المناظر والمواقف وابرازها على احسن ما تكون .

والفي اعرف من اصدقائي النواة في فن التصوير من ابدعَ كل الابداع في تصوير بعض المناظر او الاشخاص ، فجاءت صوره آيةً في الفن يُغبط عليها.

وقد رأينا في قاعة التصوير الشمسي صوراً هي في منزلة عالية من الاتقان. اذكر منها رأس امرأة يمثل « الالم » ، فانك تقرأ على قسمات وجهها عاطفة قوية في حلة من الجمال البارع . وهذا الرأس هو من صنع الفنان اسعد دقوني . وله ايضاً بعض صور لا تقل عن تلك اتقاناً وصنعةً .

ومن المناظر التي استلفتت الزائرين صورة « لنهر الكلب » من صنع سكافو ، قد جمت الى وحشة الوادي تعاكس الاظلال والاضواء واتساع المدى في وضوح وجلاء. وهناك مجموعة صور لصديقنا العزيز جوب زغزغي قد افرغ فيها من روحه الحساسة وخياله الغني ما شاء. فانه قد سلب الطبيعة مشاهدها ، وهي في افضل اوقاتها ، فن جلال السكون في المساء الى روعة اليقظة في

الصباح . وفي هذه القاعة بعض الصور الناجحة غير التي ذكرنا ، وما بقي فهو لا يخرج عن الماذي المبتذل .

التصوير البدوي

واذا تركت قاعة التصوير الشمسي ذرت في ممشى ملؤه صور بدوية اكثرها لتلامذة المدارس ، كالمدرسة الايطالية ، والمدرسة الارمنية ، وزهرة الاحسان ، وغيرها . وجلّ هذه الصور منقول عن صور لكبار المصورين الغربيين ، وليس لها قيمة فنية ، واذا مُدح اصحابها فعلى نسبة الاتقان في النقل . ومما استرعى النظر في هذا القسم رسم «قنينة» الآنسة مسك ، ورسم «فرس وفارسه» يعبّان من الساقيه للآنسة ايفون ماضي .

وكنا نود لو ان لجنة المعرض استغنت عن هذه المنقولات . وقد يكون لها عذر في رغبتها بتنشيط الفن والترغيب فيه . ولا نشك انها تكون في المستقبل أصرم منها الآن .

ثم نصعد الدرج الى الطابق العالي فنشاهد في طريقنا « طاولة من حديد مطرّق » صنع مدرسة الصنائع ، وهي على جانب عظيم من الذوق والاتقان . وعلى جانبي الدرج صور عديدة لمصورين معروفين منها « قلعة الحصن » للاستاذ قيصر الجميل ، وهي لوحة كبيرة مضطربة الصنعة ، كانما هي قد صورت بناء على طلب طالب .

وفي الجانب الايمن صورة « شيخ » للاستاذ فروخ الغائب الآن في باريس ، تمثل رجلاً عند غروب الحياة يتأمل غروب الشمس . وهذه من الصور الرمزية تبدو لنا من خلالها روح فروخ الرقيقة اللطيفة ؛ وانه ليؤسفنا ان لا يكون له في هذا المعرض غير هذه الصورة وصورة اخرى تمثل منظراً من لبنان . وعلى الدرج ايضاً صورة « طاحون لبناني » للاستاذ موراني ، ذات الوان زاهية ترى فيها غبرة ارض الجبل ولعاب شمسه في يوم من ايام الصيف .

نصل الآن الى بعض اساتذة الفن في لبنان . واول ما يعترضنا في طريقنا الاستاذ سرور و«بدوياته» ، فانه قد اشتهر بهذه البدويات ، وتمثيله لفن تمثيلاً

بدوية

نسرور

جمال ترد الماء.

للأنسي

طبيعياً بالوان ثيابهن ومميزات وجوههنّ ، وما في نفوسهن من غموض او فراغ. وقد انسنا بهؤلاء البدويات قديماً في المعرض الذي اقيم في بيروت في اول الاحتلال . ولسرور مناظر اتقن — على ما ارى — من بدوياته وهي مناظر «الناعورة في حماه» ، و«مضارب النوَر» ، و« الطاحون اللبناني» ، و«رأس خوري ماروني» يكاد ان يكون ناطقاً . واوشك الاستاذ ان يكون الوحيد بين العارضين بمعرض الصور « الطباشيرية » ، فله صور طيور مائتة ترى ريشها بارزًا للعيان بالوانه المختلفة . والحق يقال ان الاستاذ سرور يجيد تصوير الطبيعة المائتة .

وقد سررت لبعض مناظر لبنانية بريشة الآنسة بلانش عمون فيها صناعة وتسديد في التلوين ، وطريقة في مزج الاصباغ غير الطريقة المألوفة . فهذه الفاوية لها ذوق خارج عن المستوى العام .

وخصص جانب من المشى في الطابق العالي للمصور كوبر . وان لهذا الفنان شهرة في بيروت لا سيما في تصويره المناظر . قد وقفنا امام آثاره فتبيّنا — على قدر تمكننا من تفهم الفن — انه يسخّر الطبيعة لصوره ، فهو يؤلفها تأليفاً يحاول فيه ابراز فكرة ما . وقد رأينا له في الماضي صورًا اعلق بالقلب من صوره الحالية ، منها صورة « لأرز لبنان » كان قد عرضها في معرض خاص في التياترو الكبير . وقد اقنعتُ كثيرًا نفسي في ان تشتمّ في صور كوبر رائحة لبنان ، وجوّه ، وسماءه ، وروح وهاده وجباله ، فلم تقتنع النفس بذلك . واخاف ان يكون الاستاذ قد اصبح تاجرًا .

ومن المصوّرين الاجانب نوثيكوف ، فله صورة «غيضة حور» جميلة ، غير اني اخشى أن لا تكون هذه الصورة صورة لبنانية . ثم الدكتور جوفروا ، والمسيو لي كوك دي لافريوندبير ، وغيرهم كثير . اننا نرى على الاجمال في مناظر الاجانب من فنانين وغواة ، قوة وتسديدًا في التلوين هما على ضنّ عند المواطنين .

وفي القاعة الكبرى عرضت صور الفنان السيد الانسي . فهذا الاستاذ ، على حداثة عهده بالتصوير ، قد نال منه قسطاً وافرًا ، وتجاوز العادي في مناظره الطبيعية ، فهي لبنانية وعليها مسحة لبنان وفيها هواؤه . وطريقته « الاجمال » ،

اي ابراز المنظر مجملًا بدون تفصيل ، فانك تراه من بعيد فتعجبك امانة نقله وتناسقه ؛ واذا اقتربت منه لا ترى فيه شيئاً من دقائقه. فهو لا يهمّ للرسم كثيرًا ، بل يحاول ان يؤثر على الناظر تأثيرًا عاماً يرتاح لـه القلب والعين ، وهذا ما يكشف لنا عن ضعف الرسم في « متجرّداته » فهي ترضي جملةً ، ولا ترضي تفصيلًا. ومن مناظره الناجحة صورة «جبل الشوف» ثم صورة « الجمال » المتهالكة على الماء بعد قطعها الصحاري والقفار. فهذه الصورة مستغربة ، حسنة التركيب ، مبتكرة في بابها .

وفي هذه القاعة نفسها عرضت صور لفنان دمشقي هو السيد العظم . وقد وقفنا طويلًا امام هذه الصور ونحن في حيرة منها . انحن امـام تحف فنية ام نحن امام حداثة الفن ، فقد قصر ادراكنا عن تفهمها تماماً ، ففيها اختـلاط كثير في الالوان ، واضطراب كثير في الرسم ، واذكر سماء في احدى الصور لا يدري الناظر اليها اهي حقل مزدهر ام ساقية دامية .

ثم ولجنا القاعة الكبيرة ، وفيها معروضات الاستاذ الفتى ، تلميذ مدارس باريس ، قيصر الجميّل ، فاعجبنا منها دقة الصنعة واتقان الرسم. ففي «متجرّدات» الجميّل درس عميق لاعضاء الجسم البشري ، وامانة في النقل رسماً ولوناً ، وقد القى عليها مسحة شعرية من روحه ، غير انها لم تخرج عن حد «الكلاسيك». ومن مميزات الجميل الاقتصاد في الالوان فهو يستعمل ثلاثة الوان او اربعـة ، ولكنه يفاوت كثيرًا فيما بين درجات اللون الواحد. ولا شك ان لبعض صوره قيمة فنية لا يستهان بها ، وهو رسام اجسام ووجوه اكثر منـه رسام مناظر وطبيعة ، فانك لتحسّ الدم جارياً في بشرة اشخاصه ، ولتشعر بنبض عروقها. وله رؤوس من الدقة في مكان لاسيما في نظراتها وتغلب على رسومه الكآبة ، فتكاد تلمسها في جميع صوره . ومن هذه الصور « رأس للمسيح » هو غايـة في الاجادة ، تقرأ على ملامحه مُتضارب العواطف ، وقـد اقبل يهوذا ليسلمه بقبلة .

وفي المعرض صور كثيرة تستحق الذكر انما لا يسعنا المكان لوصفها وقول كلمة فيها .

طاحون عين زحلتا

للمورانى

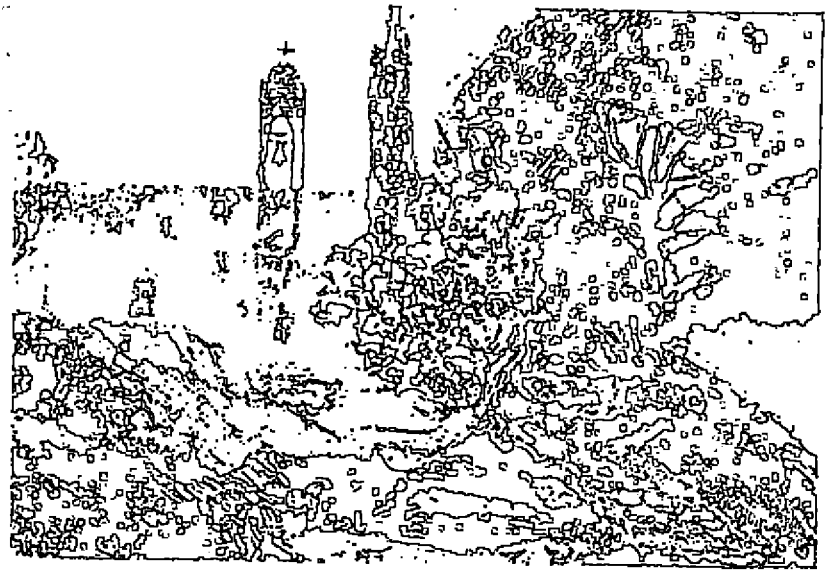

كنيسة بيت شباب

للدكتور جوفروا

النحت

اما النحت فيمثله الاستاذ الحويك ببعض رؤوس وتماثيل معظمها قديم ، فيها دقة في الصنعة . ومن ميزة هذا النحّات انه لا ينهي تماثيله ، فهي تخرج من المرمر ، او الحجر الاصفر ، ولا تزال عالقة فيه ؛ كأن الاستاذ قد اكتفى بما انهى ، وما بقي من العمل فلا أبه له . ومن التماثيل التي رأينا فيها صنعة رأس شارل قرم ، فانه قد جاء مستجمعاً الاتقان والعاطفة والروعة .

. . .

ومما لاحظنا في مجمل المعرض ان «الجماعات» اي الصور التي تحتوي على عدة اشخاص ، قليلة جداً بل تكاد ان تكون معدومة . ولا شك ان المصورين يجدون عناء في تأليف مثل هـذه الصور ، فهي تطلب وقتاً طويلاً ومواضيع تاريخية او عصرية قد لا يكون لديهم وقت للبحث عنها .

* * *

نحن لا نقول ان هذا المعرض يوازي المعارض الاجنبية ، فهو بعيدٌ عن ذلك جدّ البعد . الا انه فاتحة عمل قـد يكون له ثمرة طيبة ومستقبل ناضر ، فلا بدّ لنا من اسداء الشكر لمن دعا اليه ، ولمن سعى بانشائه ، ولمن لبّى الدعوة من الفنانين الكرام الذين اتخذوا لهم هذه المهنة الصعبة في بلادنا ، ولكنا على ثقة من انهم ، اذا هذّبوا ذوقنا بمعروضاتهم ، راجت صناعتهم فيما بيننا .